الباب الرابع

الأوهام المرضية والعنف

الإسلام دين واقعى لا يحلق فى أجواء الخيال والمثالية الواهمة، ولكنه يقف مع الإنسان على أرض الحقيقة والواقع، ولا يعامل الناس على أنهم ملائكة ولكن يعاملهم كبشر، وهو يدعوهم إلى سماحة النفس وبشاشة الوجه وطهارة القلب واللسان ولين الجانب والتغاضى عن التشدد والغلو فى كل جانب من جوانب التعامل والعلاقات الإنسانية والتسامح . وتصدر هذه الدعوة عن فهم لطبيعة الإنسان كما تكشف عنها النظريات العلمية فى علم النفس.

وسوف يتضح لنا من قراءتنا للنظريات المفسرة للعدوان إن الإنسان فى حاجة ماسة إلى هداية من الله كى يسيطر على ميوله العدوانية.

الفصل السابع عشر

النظريات المفسرة للعدوان والعنف

أشار القرآن الكريم إلى العدوان أثناء ذكره لقصة آدم وحواء وإغواء الشيطان لهما لإخراجهما من الجنة . قال تعالى **"فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين"** الآية ٣٦ من سورة البقرة. وقال تعالى **"قال اهبطا منها جميعاً بعضكم لبعض عدو فإما يأتينكم منى هدى فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى"** الآية ١٢٣ من سورة طه.

وتشير هاتان الآيتان إلى ما يحدث بين الناس من اعتداء بعضهم على بعض. فمنذ القرون الغابرة عاش الإنسان كصائد متجول، واعتمد على العدوان والعنف كى يحصل على طعامه ويوفر الأمن لنفسه، وحتى بعد أن استقر فى

الزراعة، فإنه كافح ضد الطبيعة، واستمر يعتمد فى معيشته على القوة والمجـــاهدة، وبخاصة للمحافظة على أرضه ضد خصومه عندما يكون القوت قليلاً.

وفى فترة ما من فترات تطور البشرية، انبثق عصر التكنولوجيـــا وأصبـــح العدوان يشكل فى عصرنا سببا هاما من أسباب أزمات الإنسان ومصائبه، وبـــالرغم من التقدم العلمى للإنسان وتحرره النسبى من قيود الطبيعة البيولوجية فإنه ما يـــزال يستخدم ميكانيزمات تكيفيه مستمدة من تاريخه الطويل منذ وجد على ســطح الأرض تتضمن نماذجا بدائية من العدوان والعنف والميل إلى المشاعبه، وبينما كانت تلـــك الميكانيزمات هى الاستجابات الأكثر احتمالا فى ظهورها نتيجة للضغوط الفيزيقيـــة physical stress فإنها تحدث الآن بسبب الضغوط الاقتصادية والثقافيـــة، وبينمـــا استخدم السلوك العدوانى العنيف للمحافظة على بقاء النوع الإنســـانى فـــى أوقـــات الخطر فإنه الآن يهدد وجوده المستمر. حيث ازدادت قدرة الإنسان علـــى التحطيـــم والإفساد فى الأرض بسبب تقدمه العلمى والتكنولوجى .

وفى محاولات لفهم تلك القوى الموجودة فى النفس البشرية – والتى تجعـــل من استخدام الإنسان للأسلحة المتقدمة لتدمير الحياة على الأرض أمرا ممكنا – أقـــر علماء النفس أن السلوك العدوانى هو أمر حتمى من الصعب فصله عـــن الطبيعـــة البشرية أو إزالته منها، ويشير القرآن الكريم إلى هذا فى قوله تعالى: "**وإذ قال ربـــك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفســـد فيـــها ويســـفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إنى أعلم مالا تعلمون**" الآيـــة ٣٠ مـــن سورة البقرة.

ويقول أحمد عكاشه[١]: "يؤكد كثير من الباحثين أن العنف جزء أساسى فـــى طبيعة الإنسان، وأنه التعبير الطبيعـــى لعـــدة غرائـــز عدوانيـــة مكبوتـــة، وأن أى محاولات لكبت عنف الإنسان ستنتهى بالفشل بـــل أنـــها تشـــكل خطـــر النكـــوص الاجتماعى، فلا يمكن للمجتمع الإنسانى أن يستمر دون التعبير فى العدوان ... يزيد على ذلك أن العدوان هو القوة الدافعة وراء القدرات الإبداعية والذكاء".

---

[١] أستاذ الطب النفسى بكلية الطب جامعة عين شمس ورئيس الجمعية العالمية فى الطب النفســـى (المرجع: علم النفس الفسيولوجى ، الطبعة السادسة، ١٩٨٢، دار المعـــارف، ص ص ١٩٢-١٩٣).

ويرى باحثون منهم دلجادو Delgado (١٩٦٣) وجيليولا ودانيلز Gilula &Daniels (١٩٦٩) وماركوفتز Marcovitz (١٩٧٤) أن العدوان هو أساس لكل سلوك هادف، إذ يعد الإنسان فى حالات كثيرة لأداء عمل ما معين سواء كان غير مرغوب فيه ويتضمن إيذاءً الآخرين، أو مرغوبا فيه ولا يتضمن الإيذاء للغير، مثل حب الاستطلاع curiosity وسلوك البحث عن الإثارة stimulus seeking behaviour والاستكشاف واستغلال الآخرين exploitation والسيطرة والتزاحم وشغل الأماكن الفارغة.

ويعتبر هؤلاء الباحثون أن السلوك العدوانى بهذا المعنى أمر حتمى، بل يذهب بعضهم إلى أنه من الصعب فصله عن الطبيعة البشرية أو إزالته منها، لذلك فإنه يلزم أن يتحكم الإنسان فى نفسه ويسيطر عليها من أجل أن يعبر عنه تعبيرا يتقبله المجتمع، هذا وتخفيف حدة الأعمال العدوانية التى يرفضها المجتمع يعتمد بدرجة كبيرة على استبدال المخارج الهدامة destructive channels للعدوان بمسالك أو مخارج أخرى بناءه constructive channels تساعد على استغلال الطاقة العدوانية فى أوجه مفيدة فى مجالات الإبداع والعمل والإنتاج.

ويمكن اعتبار العنف هو أحد المخارج الهدامة للتعبير على النزعات العدوانية أو هو نهاية المطاف لسلوك عدوانى مستمر يتضمن استخدام القوة بقصد التحطيم، وتعبر هذه الآراء عن النظرية الغريزية البيولوجية عن العدوان فى علم النفس، وهناك عدة نظريات أخرى تفسر العنف أو العدوان فى شكله التدميرى، ويمكن حصر هذه النظريات فى الآتى:

١ – النظرية الفسيولوجية :

تدل الأبحاث الحديثة على اللوزة فى المخ، والجهاز الطرفى فى السطح الأنسى فى المخ مع التنبيهات الكهربائية لأجزاء من الهيبوثلاموس بعلاقة العنف والعدوان بهذه المراكز فى المخ، وتفيد هذه النظرية وأنه لولا الاعتبار الخلقى لأمكن وضع حوالب مشعة فى هذه المراكز لعلاج السلوك العنيف المرضى. ويجرنا ذلك عن الحديث فى العلاقة بين الصرع والعنف، فمريض الصرع أكثر عرضة لنوبات العنف من الشخص العادى، وأن مرضى الصرع بين القتلة نسبتهم أكثر من المجموع العام، بل أنه وجد أن السلوك العنيف عادة ما يتميز فى هؤلاء

الأشخاص برسم مخ شاذ ولكنه غير نوعى، كما وجد أن أكثر من نصف هؤلاء القتلة يعانون من رسم مخ شاذ وأمراض نفسية وعقلية مما يؤيد الأساس الفسيولوجى للعنف، ويحاول البعض الآن دراسة العلاقة بين العنف واضطراب الصبغيات فى الخلية، كذلك العلاقة بين العنف والهرمونات خاصة الجنسية.

وقد أثبتت الإحصائيات المختلفة أن الخمر يلعب دوراً هاماً فى نشأة العنف، وأن نصف جرائم العنف مصحوبة بشرب الخمر، والمسألة هنا ليست مجرد احتساء الخمر، ولكن شربه فى وقت ومكان غير مناسب، وقد قيل أن الأنا الأعلى قابل للذوبان فى الكحول، وهنا يتجمد النقد الذاتى، ويفقد الفرد القدرة على التحكم فى ذاته، فالخمر والعنف من الوسائل المعروفة التى يلجأ إليها الفرد لحل صراعاته النفسية لأنهما يساعدان على تفريغ التوتر الذى لم يجد طريقة أخرى للتعبير عن شدته.

كذلك وجد أن الأقراص المنبهة للجهاز العصبى مثل الأمفيتامين (تستخدم فى فقد الشهية) تؤدى إلى سلوك عدوانى، وبينما كان الظن سابقاً أن الحشيش يؤدى إلى الهدوء والسكينة والانعزال إلا أنه أحياناً ما نجد ترابطاً بين تدخين الحشيش والقتل خاصة الاغتيال.

٢ – نظرية التعلم الاجتماعى:

هناك فريق آخر من علماء النفس يرى أن مصادر السلوك العدوانى وأنماط التعبير عنه تمتد إلى ممارسات الطفولة الأولى وأشكال التطبيع الاجتماعى المختلفة. ومن أصحاب ذلك الرأى ريتفو والبيرت RitvoAlbert & (١٩٥٨ ودافيز Davis (١٩٤٤). ويرى هؤلاء أن الفرد يتعرض لثقافات فرعية مختلفة تساعده على تعلم السلوك العدوانى، وأن خبرات التعلم الأولى هى التى توجه الطفل نحو السلوك العدوانى أو بعيداً عنه. والأبوين هما المصدر الأساسى لهذا التعلم بالنسبة لأطفالهما الصغار، فقد يكون عند الطفل مثلاً بسبب العوامل البيولوجية مزاج حاد عنيف واستعداد كبير نحو العدوان ومع هذا يتعلم الطفل منهما كيف يضبط سلوكه العدوانى ويوجهه وجهة بناءه، وقد يتعلم منهما أيضا ما هو عكس ذلك عندما يدعمان سلوكه العدوانى، ويتعلم الطفل السلوك العدوانى بالتقليد من أبويه ومن المشاهد التليفزيونية ومن زملائه وأصدقائه مع نموه.

ومن الباحثين من يقول بأن الآباء الذين يعاقبون أبناءهم بعنف هم فى واقع الأمر يعلمون أطفالهم كيف وما هى الظروف التى يمكن فيها للشخص أن يعتدى وكيف يمكنه أن يتلافى الاعتداء، هذا ويلاحظ أن بعض الثقافات الفرعية تعلم الطفل أن يقاتل، حيث تشجع الطبقات الدنيا فى بعض المجتمعات صغارها على العدوان فى مواقف معينة. ، ويمكن ملاحظة الأثر الثقافى أيضا فى عادة الأخذ بالثأر فى بعض مناطق الوجه القبلى فى مصر.

٣ – نظرية الإحباط – العدوان:

فى عام (١٩٣٩) نشر دولارد وزملاؤه .Dollard et al – وهم علماء من جامعة يال Yale – فرضا يفيد أن العدوان هو أحد الآثار الهامة المترتبة عن الإحباط وذلك بالرغم من ظهور ردود فعل أخرى مثل النكوص والانسحاب فى بعض الأحيان، ويعرف هذا بفرض: الإحباط – العدوان – the frustration aggression hypothesis .

يقول دولارد "نحن نفترض أن السلوك العدوانى يسبقه دائما حدوث إحباط عند الفرد والعكس صحيح، بمعنى أن حدوث الإحباط سوف يؤدى إلى سلوك عدوانى، وتساعدنا الملاحظات اليومية على افتراض أنه يمكن إرجاع السلوك العدوانى فى صوره المختلفة إلى أنواع متعددة من الإحباطات، ومن الواضح أنه حيثما حدث إحباط، فهناك سلوك عدوانى فى صوره ما ودرجة ما، وقد يلاحظ بين بعض الأطفال وبعض الكبار أن الإحباط لا يليه سوى تقبل واضح للموقف الإحباطى وإعادة تكيف له، وقد نتساءل عما حدث لما كنا نتوقعه من عدوان، غير أننا ينبغى ألا ننسى أن من الدروس الأولى التى يتعلمها الفرد فى حياته الاجتماعية هى أن يكبح عدوانه، ولا يعنى ذلك اختفاء العدوان، وإنما جميع ما يعنيه هذا هو أن هذه الاستجابات العدوانية قد أرجئت بصورة مؤقتة، أو قنعت، أى أخذت صورة أخرى أو حولت نحو موضوع آخر.

وبعد كف السلوك العدوانى فى المواقف الإحباطية بمثابة إحباط آخر، ويؤدى ذلك إلى ازدياد ميل الفرد للسلوك العدوانى ضد مصدر الإحباط الأساسى، وكذلك ضد عوامل الكف التى تحول دونه والسلوك العدوانى، ويؤدى هذا إلى تنوع السلوك العدوانى وتنوع الموضوعات التى يوجه إليها السلوك العدوانى.

ويشبه بعض علماء النفس عمل إبدال العدوان – وتحويله نحو موضوع ما آخر – من أجل تخفيف حدة التوتر الناتج عن الإحباط الشديد بعمل صمام الأمان فى غلاية البخار، فعندما يزداد ضغط البخار من داخل الغلاية، يسرب الصمام البخار الزائد لحماية الغلاية من الانفجار، كذلك الحال بالنسبة للشخص الغاضب المحبط، تضغط عليه انفعالاته من الداخل فيلجأ إلى الإبدال لتسريب بعضها فى سلوك ما، فالطفل المحبط من والده ولا يستطيع التعبير عن غضبه ضده قد يسرب بعضا من هذا الغضب فى الاعتداء على أخيه الأصغر، والموظف المحبط من مديره فى العمل قد يوجه عدوانه نحو زوجته، فيحتد فى نقاشه معها أو يعنف أحد أبناءه، وقد اكتشف ميللر Miller (١٩٤٨) ظاهرة إبدال العدوان عند الحيوان، واستطاع أن يجعل فأرا يبدل عدوانه، فعندما لم يستطع أن يوجه هجومه نحو فأر آخر وجهة نحو دمية أطفال.

وإذا لم يتمكن الشخص من توجيه عدوانيه نحو الخارج extraggression إلى مصدر الإحباط الأصلى أو على شكل إبدال فقد يوجهه نحو الذات أو إلى الداخل intraggression ، ويبدو على شكل لوم النفس أو الندم، أو إيذاء النفس، وهذا ما نلاحظه أحيانا على الطفل الصغير فى حالة غضبه الشديد عندما يضرب نفسه إذا لم يستطيع أن يوجه عدوانه نحو أحد، وقد يصل الأمر عند بعض الأشخاص إلى حد الانتحار فى حالات معينة.

هذا وقد تعددت الدراسات حول هذا الفرض ويرى بعض الباحثين أنه الآن أصبح فى عداد النظريات ومع هذا فقد وجهت إلى هذه النظرية العديد من الانتقادات، منها على سبيل المثال أن كل من مصطلح إحباط أو عدوان هو مفهوم عام غير محدد، فهناك الكثير من المواقف التى يمكن أن تسبب الإحباط عند الفرد فى رأى الباحثين، فبينما يرى دولارد وزملاؤه ١٩٣٩ أنه يحدث عند إعاقة سلوك هادف للفرد يرى روزنزفيج Rosensiweig أنه ينتج أيضا عن مواقف الحرمان أو الافتقاد، ويختلف عنهما أمزيل Amsel (١٩٥٣) الذى توصل إلى أن هناك إحباط ينتج عن التوقف عن الإثابة بعد أن يعتادها الكائن الحى frustrative nonreward ، هذا بالإضافة إلى أن الناس يختلفون فيما يمكن أن يؤدى إلى إحباطهم باختلاف ما سبق أن مروا به من خبرات وما يتوقعونه لأنفسهم من آمال أو مستويات طموح، كما أن العدوان أيضا له أنواع متعددة، فقد يكون مباشرا أو

غير مباشر، والعدوان المباشر قد يكون لفظيا أو بدنيا، كذلك الحال بالنسبة للعدوان غير المباشر الذى ربما يظهر على شكل خلفه أو امتناع عن المساعدة وهكذا. كما بينت الدراسات أيضا أن العدوان لا يظهر بالضرورة أثر الإحباط علاوة على إمكانية ظهور ردود أفعال أخرى للاحباط كالنكوص regression أو التثبيت fixation وغيرهما، كما أن العدوان الناتج عن الإحباط يتوقف ظهوره على عوامل تختلف من شخص لآخر وهى: السمات الشخصية للفرد ، وجنسه وخبراته السابقة وحالته المزاجية وتفسيره للموقف الذى يمكن أن يسبب الاحباط.

نظرية الإحباط – العدوان ومشاعر الاضطهاد والعنف:

ونظرية الإحباط – العدوان هى أساس لما قد سمى بنظرية التحامل على شخص ما بتحميله خطايا غيره أو كبش الفداء الخاصة بالتعصب scapegoat theory of prejudice ، وتفترض هذه النظرية أن العيش فى مجتمع منظم يشكل بالنسبة لبعض الناس خبرة إحباطية ينجم عنها عدوان عائم مطلق يمكن أن يتعلق بأى موضوع free floating aggression ، فحيث أن الشخص قد لا يستطيع أن يوجه عدوانه نحو مصدر الإحباط كالآباء أو الرؤساء مثلا فإنه يبدله نحو آخرين فى شكل تحامل أو تعصب نحو الجماعات الأخرى وبخاصة جماعات الأقلية، وحياتنا فى هذا العصر أصبحت مليئة بالمواقف المحبطة ولم تعد سهلة ميسورة للجميع، ويعتبر التعصب العنصرى من أشد ما يقاسى الإنسان وبخاصة فى عصرنا الذى تنتشر فيه مفاهيم الديمقراطية وحقوق الإنسان والمساواة.

ويقول جونسون Johnson (١٩٧٢) أن نظرية الإحباط – العدوان اليوم هى مجرد وثيقة تاريخية مسلية أكثر من كونها تقريرا نهائيا عن العدوان، ومع ذلك فإن الفكر النظرى المعاصر حول هذا الموضوع يجد جذوره فى هذه النظرية الكلاسيكية، ويرى جازانيجا Gazzaniga (١٩٧٣) وآخرون أن هناك قصورا رئيسيا فى هذه النظرية: وهو أن الناس جميعاً عرضة للإحباط فى وقت ما أو آخر ولكنهم لا يتصرفون بعنف ولا يتعصبون كلهم تعصبا أعمى.

هذا وتشير الدراسات إلى أن هناك متغيرات شخصية معينة هى التى يترتب عنها السلوك العدوانى بسبب الإحباط، ولعل من أبرز هذه المتغيرات الميول البارانويدية وما تتضمنه من شك وشعور بالاضطهاد، فقد وجد مثلا دودج وزملاؤه

Dodge et al. (٨١، ٨٢ ، ١٩٩١) أن الأشخاص الذين يـــردون بعنـف علـى مواقف الإحباط يتسمون بالآتى:

أ – أكثر من غيرهم اتهاما للآخرين بالقصد العدائى hostile intent والشر وسوء النية.

ب) يغلب عليهم الميول البارانويدية التى تتضمن أفكار الشك والاضطهاد .

ج) أكثر من غيرهم شعورا بعدم الأمان.

كما اتضح أن ظروف التنشئة الأسرية التى تتسم فى فترة ما بالتدليل الزائـد وفى فترات أخرى بالإحباط المتكرر والتسلط يمكن أن تساعد على تنميـة الميـول البارانويدية فى مرحلة المراهقة والشباب، وقد تنمى أيضا هـذه التنشـئة الميـول الانسحابية ويصبح الأفراد أقل قدرة على تكوين أحكاما واقعية ودقيقة عن الآخرين، وبالتالى أقل تسامحاً فى مواقف الإحباط عن الأفراد الاجتماعيين الذين يمكنهم تفـهم الناس وتكوين أحكام أكثر واقعية عنهم.

أما فيما يتعلق بالمتغيرات الشخصية فى حالات التعصب فيلاحظ أن تـأثير الإحباط تراكمى، وعادة ما تتسم تنشئة الأفراد المتعصبين بالإحبـاط علـى شـكل عقاب أو قمع مستمر أثناء طفولتهم وبخاصة من الأبوين، والطفل الطبيعى الـذى لا يشب متعصبا هو الذى يلقى تسامحا من أبويه وفرصة للتعبـير عـن نفسـه، أمـا المتعصب فهو الذى يتعرض عادة إلى نظام تربوى أسرى صارم، ربما يحدث هـذا فى محاولة للاتجاه به نحو المثالية وعادة ما لا يجد متنفسا كافيا فـى اللعـب مـع أقرانه من الأطفال، ويتولد عن إحباطه المستمر – أو الاسـتهزاء بـه – شـعوره بالاضطهاد واتجاهه نحو العدوان. ولا يستطيع الطفل أن يوجه عدوانه نحو الأبويـن وإنما نحو من هم أضعف منه أو أقل منه سنا بشرط أن يكون هناك مـبررا لذلـك، ويشب الطفل وتشب معه مشاعر الاضطهاد وقد اعتاد هذا الإبدال للعـدوان، ومـن الفئات التى يبدل نحوها العدوان فى الكبر: الأفراد المنحرفين أو جماعات الأقليـة أو الشواذ أو المجرمين. ويعتبر أدورنو وزملاؤه Adorno.et al (١٩٥٠) أول مـن حاولوا ربط التعصب بنمط معين من الشخصية، وقالوا بأنه – أى التعصب – تعبـير عن عوامل قديمة فى شخصية الفرد ومشاعر اضطهاد تجد منفذا لها فى اتجاهاتـه السياسية والاجتماعية. والشخصية المتعصبة هـى التـى أكـثر عرضـة مـن

الشخصيات الأخرى إلى تقبل الأفكار العرقية والخاصة بكراهية فئـــات أو أقليـــات أخرى فى مجتمع ما.

كما أن أعراض القهر التى لقيها الطفل فى تنشئته لا تنعكـــس فقـــط علـــى اتجاهاته الاجتماعية عند الكبر وإنما تشكل عنده أيضا أسلوبا معرفيا جامدا متصلبـــا فى حكمه على الآخرين أو الأشياء: فهم فى رأيه إما أن يكونوا علـــى صـــواب أو على خطأ دون أن تكون هناك درجات لهذا الصواب أو الخطـــأ ودون أن يعـــترف بأن كل شئ يوجد بمقدار .

ومثل هذه الشخصية المتعصبة والتى تعانى من الأوهام الاضطهادية شـــبه المرضية عادة ما يظهر لديها عداء مستمرة نحو السلطة أو الرؤســـاء فـــى العمـــل باعتبارهم يمثلون الأبوين أو يعتبرون رمزا لهما.

هذا وقد وجد الباحثون أن اتجاهات الأبوين فى التعصب نحـــو جماعـــات معينة يمكن أن تنتقل بسهولة إلى الأبناء عن طريق التعلم كما ينتقـــل إليـــهم أيضـــا الشك وأوهام الاضطهاد شبه المرضية.

وقد تتميز الشخصية المتعصبة أيضا بالميل إلى العنف لحل مشكلاتها بـــدلا من التروى والصبر، وقديمـــا لاحـــظ روكيـــش Rokeach أن السياســـيين ذوى الشخصيات التسلطية يفضلون الحلول التى تحمل فى طابعها العنف وبخاصة عندمـــا يتعرضون للضغوط وهم يميلون إلى التصلـــب فـــى آرائـــهم، ويقـــول فرانســـيلا Fransella (١٩٨١) أن التصلب هذا قد يكون :ن صفات بعض رجال السياسة من اليمين المتطرف ويطلق عليهم لفظ ذوى العقول المغلقة close minded .

الفصل الثامن عشر

التعصب العنصرى والأوهام شبه المرضية والعنف

١ – مقدمة:

تفجرت مشكلة النازيين الجدد فى بعض أنحاء أوربا منذ محاولة الاغتيال الفاشلة التى تعرض لها الرئيس الفرنسى "جاك شيراك" فى أثناء الاحتفال بعيد الثورة فى ١٤ يوليو ٢٠٠٢ ، وبات على السياسات الأوروبية أن تراجع نفسها إزاء الجماعات التى خرجت من عباءة اليمين المتطرف مثل: جماعة النازيون الجدد، وجماعة حليقو الرؤوس، وجماعة الوحدة الراديكاليه التى ينتمى إليها الشاب المتهم بمحاولة اغتيال شيراك.

ولعل مما يساعد على تكوين مثل هذه الجماعات وبخاصة عند المراهقين والشباب عدة عوامل: منها غريزة التجمع، ففى التجمع إشباع للكثير من الدوافع الهامة عند أى إنسان مثل الدافع إلى الانتماء والدافع إلى تقدير الذات وحب الولاء[1]، هذا إلى جانب ما هو أهم من غريزة التجمع هذه وهو انتشار الأفكار الغريبة المتطرفة عن التعصب العنصرى، وتتميز هذه الأفكار بالسخط العام على فئة من الناس أو على المجتمع ومعاييره السائدة والإيمان بضرورة تغييرها بل وأحيانا تغيير العالم، وفيها يجد المتعصب مادة أو موضوعا للتنفيس اللاشعورى عن مشاعر الإحباط والاضطهاد التى يعانى منها. (وقد تكون هناك أيضا مشكلات اقتصادية أو اجتماعية أو نفسية وراء هذا التعصب كالفقر والبطالة لدى بعض الشباب).

وتظهر فى أوربا حاليا جماعة تطلق على نفسها اسم ماكينة تجتذب المراهقين والشباب الذين تتراوح أعمارهم بين ١٧ ، ٢٢ عاما ولها طقوس معينة فى الملبس والغناء وتملأ شرائطها الغنائية الساحات فى مدن أوروبا، وهى تدعو

---

[1] أحياناً ما يطلق على المراهقين أنهم متمردون وغير مطيعين، ويبدوا هذا فى اتجاهات المراهق نحو السلطة الضاغطة وبخاصة أولئك الذين يرفض الاعتراف بهم، إلا أنه يكون مطيعا جدا وخانعا ولكن فقط للقيادة التى يتقبلها سواء كانت مراهقا أو شخصاً من الكبار.

إلى كراهية الآخر وإبعاده ، ففى إحدى الأغنيات يخاطب المطرب ذوى الأجناس الأخرى غير الأوروبية، ويتوعدها بالقتل لسبب بسيط هو أنه يريد الجنس النقى فقط، وليس خافيا أن هذا الجنس أو النوع المطلوب هو الجنس الأوروبى وليس الأفريقى الأسود أو العربى الشرق أوسطى.

هذا ويحظر رجال السياسة من هذه الجماعة لأنها عدوانية وكارهة للآخر، وتحرص على استعمال كل أساليب العنف من قتل وحرق وإبادة، ومما يزيد الطين بله أن موسيقى وأغانى جماعة ماكينة هذه تسرى بين بعض المراهقين والشباب سريان الماء فى العود خصوصاً تلك الأغنية التى تقول: "نحن لا نريد هذا العفن يقصد الأجانب حولنا فلابد من إبعادهم واستئصالهم لأنهم ليسوا من الجنس النقى".

وهكذا نرى أن التعصب العنصرى اتجاه نفسى جامد مشحون انفعاليا ضد جماعة ما أو جماعات لا يقوم على سند منطقى أو معرفة كافية أو حقيقة علمية، يجعل الإنسان يرى ما يحب أن يراه فقط، ولا يرى ما لا يحب أن يراه، وكأنه يعمى ويصم ويشوه من إدراك الواقع، وهو يتنافى مع جوهر الأديان السماوية المنزلة من الله وما تدعو إليه من تسامح ومحبة بين الناس.

وتشابه جماعات التعصب العنصرى أيضا جماعات التعصب أو التطرف الدينى، ويعانى أفرادها من أوهام مرضية موضوعاتها دينية، يغلب عليها مشاعر الاضطهاد، وتدعو إلى القتل تحت ستار الدين، يرى أصحابها أنهم خلقوا لإصلاح العالم أو بلدانهم وتحريرها من الفساد، ويميل بعض أفرادها إلى التنفيذ العملى لهذه الأوهام بالاشتراك فى أعمال التخريب والعنف والقتل، وبذا تتنافى تصرفاتهم مع متطلبات الصحة النفسية الخلقية[1]، ويقول عادل صادق[2] أن هذا التطرف قد يخفى وراءه مرضا كالبارانويا وبخاصة فى سن المراهقة أو الشباب، والمشكلة أن هذه النوعية من المرضى لا تبدو عليهم أى أعراض مرضية أخرى ولهذا فمن الصعب على أى إنسان أن يقول بأنهم مرضى، وبعضهم يبدو مقنعا ومؤثرا، وقد يلتف حوله

---

[1] يفيد التعريف الخلقى للصحة النفسية أن يفعل الفرد ما يراه صوابا على أن يكون الصواب فى نظره: ألا يسرق ألا يزنى، ألا يقتل ، ألا يخرب، ألا يؤذى ، ألا يفعل ما يهدد سير الحياة ونموها.

[2] أستاذ الطب النفسى ، كلية الطب، جامعة عين شمس.

الناس ويتمكن من نشر أفكاره الغريبة، ولكن هناك أيضا مرضى من بين الملتفين حوله.

فإذا كانت الأديان تدعو إلى المحبة[1] فإن هؤلاء المرضى يحرضون على العدوان والكراهية، ويعتبر العدوان أحيانا أحد مظاهر المرض النفسى فى رأى بعض علماء النفس، فهو يعد مثلا عاملا هاما فى تفسير "أدلر" Adler للأمراض النفسية، وكان يرى أنه يظهر فى أشكال متنوعة مثل الميل إلى احتقار الآخرين والاتهام الصريح لهم والاعتداء البدنى.

ونجد أمثلة من المتطرفين المرضى ذوى الأوهام البارانويدية فى بعض الجماعات التى تتخذ من الدين الإسلامى ذريعة لهذه الأوهام، فالجماعة الإسلامية فى الجزائر تعتقد أن كل سكان العالم كفره، والجماعة وحدها هى المسلمة إسلاما حقيقيا ويقتل أفرادها المواطنين الأبرياء كخطوة هامة نحو إقامة خلافة إسلامية كبرى وإسقاط الحكومات العربية. ويدعى قادة هذه الجماعات أن المعركة ما زالت مستمرة وأن الجماعات سوف تنتصر فى النهاية، ويتصارع هؤلاء القادة المتطرفون أحيانا على السلطة فى هذه الجماعات[2].

وفى مقابلة لأحد أفراد هذه الجماعات المتطرفة اتهم بمحاولة اغتيال الكاتب نجيب محفوظ قال: "للأسف المساجد لا يوجد بها خطباء يمكنهم جذب المصلين إليهم وهى تحتاج إلى رعاية كاملة وتدريب كوادر كى تؤدى رسالتها بعكس الجماعات الإسلامية التى جذبتنى إليها، واستطاعت فى فترة وجيزة إقناعى بأفكارها، وأنا قرأت الكثير من الكتب الخاصة بالجماعة وكتاباتها التى تخص عمر عبد الرحمن وعبد الآخر حماد (هارب بالخارج) وناجح إبراهيم وغيرهم. وهدفنا

---

[1] جاء فى المسيحية أن "الله محبة"، وأيضا من وصايا القرآن الكريم فى سورة فصلت "**ولا تستوى الحسنة ولا السيئة إدفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم**" الآية ٣٤ ، وهى وصية من شأنها أن لا تقف عند حد محبة المحبين بل تتجاوزه إلى ولاية المبغضين، وصداقة حتى الأعداء.

[2] يقال أنه فى تاريخ الأخوان المسلمين أعمال متعددة لاغتيال بعضهم البعض، ويقول الشاعر: مخطئ من ظن يوما *** أن للموهم دينا . أى أن الذى يوهم الناس بغير الحقيقة ضال مضل مدع لا دين له ولا شرع ولا خلق.

الذى تعلمته هو تحكيم كتاب الله، ولنا أهداف كثيرة ننفذها، وكان من بينها اغتيال الكتاب والشخصيات وضباط الشرطة.

وعندما سُئل كيف تريدون تطبيق شرع الله بالسلاح؟ وهل الإسلام يقر القتل؟ رد قائلا: هذه وسيلة نلجأ إليها لإرهاب كل من يحاول منعنا من أداء رسالة الجماعة التى ننشدها الآن، والغاية تبرر الوسيلة، وسوف نحاسب يوم القيامة على النية، ولا يهم سقوط ضحايا أبرياء عند تحقيق أهدافنا. ولما سئل عن محاولة اغتيال الكاتب نجيب محفوظ؟ أجاب: توجهت ومعى "باسم" زميلى فى الجماعة إلى منزل نجيب محفوظ يوم الخميس لذبحه أمام أسرته، كنت أحمل مطواه ومسدسا أخفيتهما وسط ملابسى، وكان "باسم" يرتدى ملابس خليجية، وهدفنا كان القتل، وحملنا معنا باقه زهور وشيكولاته بحجة تقديمها هدية للكاتب، وصعدنا إلى شقته، ففتحت لنا سيدة "زوجته" وأفهمناها برغبتنا فى مقابلة "الأستاذ" ولكن للأسف لم يكن موجودا، وقالت أنه بالكازينو .. وفى صباح الجمعة التقيت مع أفراد المجموعة الخمسة واتفقنا جميعا على "إن شاء الله نقتله.. وفى العصر علمنا أنه سوف يتوجه إلى الكازينو كعادته .. وعندما جلس فى الكازينو هممت بطعنه فى رقبته بكل قوتى لإنهاء حياته .. ثم هربت .. والتقيت بعد ذلك بباقى أفراد الجماعة، وأخذنا بعض بالأحضان وكانت كلمة مبروك هى شعارنا فى هذا اليوم.

ثم دار الحوار التالى بين أحد المحققين والمتطرف.

- المحقق: لماذا حاولت قتل نجيب محفوظ؟

- المتطرف: كان هناك تكليف شرعى من الجماعة بإباحة دمه (مثل الدكتور فوج فوده) لأنه يهاجم الدين الإسلامى فى روايته "أولا حارتنا".

- المحقق: وهل قرأت هذه الرواية؟

- المتطرف: لا ولكن هكذا كانت الفتوى بالقتل، ونحن ننفذ ما يطلب منا، ولو قدر لى الخروج من هنا والعيش حرا ما ترددت لحظة فى محاولة قتله مرة أخرى.

وقد وصف بعض الكتاب أسامة بن لادن – مدبر الهجمات الانتحارية على نيويورك وواشنطن فى ١١ سبتمبر عام ٢٠٠١ – بأنه كان يعانى من مشاعر الاضطهاد منذ طفولته نتيجة للطريقة الجافة التى كان يعامله بها أفراد أسرته بسبب

والدته السورية، وأنهم كانوا يصفونه بأنه "ابن العبدة" أو الجارية ، ومع نموه وإتمام تعليمه، ونجاحه فى حياته العملية كرجل أعمال كان يعتقد تحت تأثير أوهامه البارانويدية أنه مكلف بواجب دينى ومهمة مقدسة لنصرة الإسلام هى: محاربة الظلم وقتل الكفار والمشركين، وزين له أن هذا يمكن أن يتحقق على أفضل وجه بمهاجمة وتخريب مناطق أهله بالسكان المدنيين، وشاركه فى هذا الاعتقاد "محمد عطا" قائد المجموعة التى يعتقد أنها قادت الطائرات الانتحارية فى ١١ سبتمبر. وكان محمد عطا يعتقد أن معظم سكان العالم من الكفرة، ويصف النظم السياسية فى كل بلدان العالم بأنها نظم جاهلية ومن ثم يجب الجهاد ضدها.

وقد اقتنع أفراد المجموعة الانتحارية بالفتوى التى تبيح قتل المدنيين ومنهم أطفالا وشيوخا ونساءاً، والتى أقرها ودفعهم إلى تنفيذها زعيمهم الروحى: اسامه بن لادن، الذى لم يكن يظهر عليه أى أعراض ولا حتى أوهام مرضية أخرى، بل كانت لديه القدرة على التأثير فى الآخرين بأحاديثه ومحاضراته، وله أتباع يبلغ عددهم ٢٠ ألف مقاتل يعاملونه كأمير لا ترد له كلمة، ولا يظهر اضطرابه إلا إذا ما أثير الموضوع الخاص بوجوب قتال الكفرة أينما كانوا مدنيين أو عسكريين واتباعهم.

وقد ترتب عن هجمات جماعة بن لادن المتطرفة قتل ثلاثة آلاف من المدنيين الأبرياء ومنهم أيضا مسلمين، وكذا تشويه صورة الإسلام، ومزيد من التشريد والقتل لآلاف الفلسطينيين على أيدى الجيش الصهيونى فى فلسطين المحتلة بزعم رئيس الوزراء الإسرائيلى "أيريل شارون" التضامن مع الأمريكيين فى حملتهم ضد الإرهاب والشر والمحافظة على القيم الديمقراطية، وخدم بذلك بن لادن[1] وجماعته المتطرفة – بطريقة غير مباشرة – المصالح الأمريكية والصهيونية فى الهيمنة على ثروات الشرق الأوسط والهجوم على الإسلام، مما دفع بعض المراقبين إلى القول بأن الذى شجعه وجماعته على هذه الهجمات هى

---

[1] هناك من يرى أيضا أن أسامة بن لادن عميل للمخابرات الأمريكية وإسرائيل لأنه أعطى لها ذريعة لأعمال عنف مضادة. ويقول الكاتب أنيس منصور "لا شك أن أمريكا تدين لرجلين من رجالها السابقين هما: صدام حسين وبن لادن. فلولاهما ما استقرت أمريكا فى الخليج وحول بحر قزوين" (الأهرام فى ٢٠٠٢/١٢/٥ العدد ٤٢٣٦٧)

المخابرات الإسرائيلية أو الموساد، بل وهناك من يعتقد بأن هذه الهجمات كانت من تدبير الموساد، وقد يكون محقا فى هذا.

ويرى علماء النفس والاجتماع أن ظواهر التطرف الدينى والعنف موجودة فى معظم مجتمعات العالم وفى جميع الأديان ، ويشابه روثفن Rothfen (٢٠٠٢) فى كتابه غضبه من أجل الله A Fury for God بين التشدد أو الأصولية الإسلامية والأصولية المسيحية بين الأمريكيين البروتستانت والتى تبنت جماعات منها "العنف الدينى" باعتباره غضبة من أجل الله ضد مظاهر الإنحلال والفساد والاجهاض وانتهاك وصايا الرب.

وباستثناء العنف الذى تمارسه الدول والحكومات باسم الدين أو تحت ستاره، وذلك كالمذابح التى تمارسها السلطات الإسرائيلية ضد الشعب الفلسطينى الأعزل، هناك أيضا أعمال عنف فردية عديدة تتم باسم الدين منها عمليات قتل المتطرفون اليهود للفلسطينيين منذ حرب (١٩٤٨)، وقيام الإيرلنديين الكاثوليك بتفجير الشاحنات والحافلات، ووضع اليابانيون من جماعة "هندو – بوذيه هى" بزعامة "أساهارا" غاز الأعصاب فى مترو طوكيو، وقتل اليهودى باروخ جولد شتاين عشرات المسلمين وهم يقيمون الصلاة فى الحرم الإبراهيمى، وفى مثل هذه الحالات وغيرها نقف أزاء عدة حقائق منها:

١ – أن أصحاب هذا العنف يعتقدون أن تصرفاتهم ضرورية وخير أو من أجل الله، لأنهم يقاومون الشر والظلم، وهم مقتنعون بها بل ومصرون عليها أحياناً.

٢ – قد يصحب هذه الاعتقادات تغيرات أساسية فى شخصية الفرد عادة ما تبدو على شكل غرور أو تصلب فى الرأى أو مظاهر التدين الشديد (المصحوب بالعصبية أحيانا). وكراهية تفوق الحد المعقول لمن هم على غير دينة أو قوميته[١].

٣ – غالبا ما يستند اعتقاده على استدلالات غير صحيحة عن الواقع الخارجى، فالآخرون مخطئون آثمون، وأن له واجب مقدس هو إصلاحهم، وعند محاولة

---

[١] كوصف أحد المتطرفين الصهيونيين من حزب شاس الدينى (وزير الصحة) المسلمين الذين يصلون فى الحرم المقدس بأنهم أفاع وعقارب.

إقناعه بخطئ رأيه يتجاهل الحقائق المعارضة لاعتقاده الوهمى ويعطى أهمية لما يؤيد هذا الاعتقاد من أدلة عادة ما تكون غير صحيحة.

٥ – عادة ما يشذ اعتقاده وتصرفاته عن آراء وسلوك أفراد المجتمع الكلى الذى ينتمى إليه المتطرف باستثناء قلة من الشواذ المشابهين له، أى أن هناك أيضا معيار ثقافى أو دينى يقرر وجود هذه الأوهام المرضية لدى هؤلاء المتطرفين.

٢ – الأساطير وعنف الدولة:

الجهاد واجب وطنى مقدس لطرد المحتل وإعادة الحقوق لأصحابها، تقره جميع الشرائع والأديان السماوية كجهاد الشعب المصرى وسائر الشعوب ضد الاحتلال البريطانى وغيره، وجهاد الشعب الفلسطينى ضد الاحتلال الصهيونى.

إلا أن هناك بعض النزعات العنصرية تميل إلى إضفاء صفة القداسة على ادعاءاتها، بقصد التوسع والسيطرة على شعوب أخرى حيث يميل زعماؤها المتطرفون أو الديكتاتوريون إلى تحقيق الشهرة والعظمة لأنفسهم تحت ستار الدين أو الديموقراطية ومقاومة الشر، فقد ادعت مثلا فرنسا فى حروبها الاستعمارية أنها هى "الابنة البكر للكنيسة" وتنفذ مشيئة الرب)Gesta Dei Per Francos(، وادعت ألمانيا فى حكم هتلر أنها فوق الجميع لأن الله معها)Gott mit uns(، وأعلنت إيفا بيرون أن للأرجنتين رسالة مقدسة هى نقل الله إلى العالم، وأيضا فورستر رئيس وزراء جنوب أفريقيا الذى اشتهر بسياسته العنصرية الوحشية المتمثلة فى الفصل العنصرى كان يقول عام ١٩٧٢ "لا تنسوا أننا شعب الله[١] الذى أوكل إلينا تحقيق رسالته". وتشارك النزعة القومية الصهيونية جميع النزعات القومية الأخرى هذا الإحساس بالزهو، كما يبالغ زعماؤها الدينيون فى اعتقاداتهم غير السوية أو ضلالاتهم الدينية religious delusions المحرضة على قتل الفلسطينيين وإبادتهم وطردهم من أرضهم، ونعرض هنا ما يوضح أن مثل هذه الآراء الغريبة أو الضلالات من ابتداع أصحابها ولا تتفق مع ما تدعو إليه الأديان السماوية المنزلة.

---

[١] قال تعالى: "أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم" الآية ٢٣ من سورة الجاثية.

٣ – أمثلة من الحركة الصهيونية:

هاجر الحاخام إبراهام تيزاك كوك (١٨٦٥-١٩٣٥) إلى فلسطين عام (١٩٠٤) ليصبح حاخاما لمجتمعات المستوطنات الجديدة وهو فى شدة الحماس للحركة الصهيونية، إلا أنه تملكه الغضب عندما سمع بأن وفود الحركة إلى الكونجرس الصهيونى فى بازل عام (١٨٩٨) قد أصدروا بيانا بأن الصهيونية لا علاقة لها بالدين، ورد قائلا بأن فى هذا البيان ضلال ومقت شديدين، وهو سم يفسد الصهيونية. فعودتنا إلى الأرض تعنى عودتنا إلى الاله، وذلك لتحقيق الخلاص لنا وللعالم، فخلاص البشرية يتبع خلاص إسرائيل، فهى التى عقد الاله معها ميثاقا لا ينفصم ومهما كانت معصيتها.

وتقول كارين أو مسترونج فى كتابها "معارك فى سبيل الاله" أن كوك كان يعانى من جنون العظمة ويتحدث وكأنه أحد الأنبياء القدامى، ويعتقد أن الصهيونيون هم أدوات للرب يساعدونه على تحقيق خطته التى يتم تنسيقها فى السماء، وهم سوف يحدثون ثورة روحانية فى الأرض المقدسة لإنقاذ التاريخ، وهذا سوف يتحقق فى حياته، إلا أنه مات عام (١٩٣٥) أى قبل إنشاء دولة إسرائيل بثلاثة عشر عاما.

وكان له أتباع كثيرون منهم الحاخام "توفاليس" الذى كان يقول نقلا عن "كوك" أن روح الإله وروح إسرائيل هما شئ واحد، ويشير الحاخام "فلاديمير جابوتنسكى" إلى أن الشعب اليهودى هو رب نفسه، والأرض أيضا هى ربه" وينتهى من ضلالاته إلى أن إسرائيل شعب مقدس له حقوق مطلقة فى أرضه المقدسة يفعل فيها كيف يشاء، فهو شعب حل الاله فيه وفى أرضه، وبهذا يتفق مع كوك الذى يرى أنه شعب اله وأرض اله. والعلاقة بين الأرض والشعب عضوية حتمية بمعنى أن الأرض ستظل خرابا ومهجورة إذا تم فصل الشعب المقدس عن أرضه المقدسة، والشعب سيظل فى حالة اغتراب وحزن إذا ظل بعيدا عن الأرض، فالأرض تكتسب الحياة من الشعب، والشعب يكتسب الحياة من خلال الأرض، وهذه الرؤيا تفسر الشعار الصهيونى: أرض بلا شعب لشعب بلا أرض، وفى هذا الشعار تجاهل تام للحقيقة الواقعة وهى أن الأرض يسكنها الفلسطينيون، ويمكن أن ينطوى هذا التجاهل على ما يشبه ضلال الانعدامية nihilistic delusion حينما يعتقد

صاحبه أنه لا توجد أناس فى أرض كانت مكتظة بأصحابها فى الوقت الذى ظهر فيه هذا الشعار.

وكان الحاخام "زفى يهوذا" ابن الحاخام "كوك" يقارب عامه السبعين حينما اكتشفته جماعة "الجاهلت" أو كتلة المؤمنون الصهيونيون[1] يتمتع أيضا بتقدير هذه الجماعة مثل والده. وكان خطيبا بارعا تتطلق منه أحيانا صرخات باكيه أثناء وعظه المعتاد فى مركز هاراف ياشيفا، ، ويصر دائما على أن يشهد الناس استعراض الجيش لأنه مقدس والجنود متدينون مثل طلبة التوراة وأسلحتهم مقدسة مثل شال أو تميمه الصلاة، وتقول "كارين أرمسترونج" أنه خلق ما يمكن تسميته بالوثنية، فكيف يمكن للجيش أن يكون مقدسا حينما يرتكب البشاعات ويبيد السكان العرب الأبرياء، وكانت له نفس اعتقادات أبيه فى أنه إن لم يستوطن اليهود كل أرض إسرائيل فلن يتم الخلاص الذى فيه سلام للعالم أجمع، ومن الواجب الدينى طرد العرب وضم أراضيهم لإسرائيل، وأصبح تلاميذه معظم حاخامات اليوم.

ويقول الحاخام "عوفاديا يوسف" الزعيم الروحى المعاصر وأهم شخصية دينية فى حزب شاس أن المسيح المنتظر قد جاءه فى الحلم وبشره برؤية القدس وكل فلسطين وقد تطهرت تماما من الفلسطينيين العرب الأشرار، بينما ازدحمت باليهود ملايين وراء ملايين بعد أن عادوا من "الدياسبورا" أى من "المهاجر" إلى أرض الميعاد، يتعبدون ويصلون أمام حائط المبكى دون وجود للأغيار الأشرار الذين يثيرون الحروب ويقصد بهم الفلسطينيين.

ويذكر الدكتور عبد الوهاب المسيرى أن هيرتزل كان يتوهم أن له بعض صفات النبوة، ويحكى عن نفسه أن المسيح أتاه فى حلمه وطار به، فالتقيا بموسى عليه السلام الذى قال له لقد صليت من أجل هذا الصبى، كما قال لهيرتزل "اذهب

---

[1] يطلق ايضا على هذه الجماعة اسم الجمرات الوامضة، وكانوا يحلمون بإقامة كيوبيتز (مستعمرة) تتوسطها قاعة كبيرة ينقطع فيها الرجال لدراسة التلمود أثناء الليل والنهار مثل "الحريديم" بحيث يوكل أمر العمل إلى النساء، ويتولين الانفاق عليهم وزرع الأرض، وقد أصبحت الجاهلت مجموعة منتقاه ومنتخبة فى الدوائر الصهيونية المتدينة.

obeikandl.com

ويقول بعض الكتاب أن التحليل الدقيق للشخصية الجماعية فى إسرائيل يجعلنا نقرر أن الهوية اليهودية التى هى فى دور التكوين فى إسرائيل تختلف فى سماتهم بدرجة قليلة أو كبيرة عن الهوية اليهودية السائدة فى عدد من التجمعات اليهودية فى العالم الغربى، فهى سمات ترتكز على أيديولوجية عنصرية هى الصهيونية وتقوم على عدد من الأوهام والأساطير شجعت على عملية استعمار استيطانى، واستغل القادة العسكريون لتحقيق طموحاتهم، ويرى بعض المحللين النفسيين أن هذه السمات التى يمكن استخلاصها من تحليل التاريخ اليهودى يتعلق بنظرة اليهود إلى أنفسهم باعتبارهم كانوا دائما أقلية مضطهدة، ومن بين هذه السمات: القلق والإحساس بالدونية، والشك، وعدم الثقة فى غير اليهود. وقد انتقلت بعض هذه السمات – فيما يرى بعض الباحثين من علماء النفس – إلى المجتمع الإسرائيلى، كما تنتقل أيضا الأوهام المرضية والأساطير المحرضة على القتل والإبادة إلى أفراد هذا المجتمع كمعتقدات دينية مقدسة يجب الالتزام بها، وذلك عن طريق عدد من الوسائل: كالتطبيع الاجتماعى لصغار النشئ، وتعلم السلوك بمقتضى هذه الأوهام عن طريق القدوة والتدعيم الاجتماعى، وتتم هذه الوسائل وغيرها من خلال المسايرة. وتنتشر الأساطير والاعتقادات الشاذة للإضفاء الشرعية على الحروب كما كانت تنتشر قديما الضلالات التى تدعو إلى عبادة الأصنام أو الحيوان أو النار بحجة تأثيرها على حياة الإنسان، وذلك بالمسايرة.

ويعرف الان Allan (١٩٦٥) المسايرة أجرائيا بأنها تغير فى سلوك الفرد راجع إلى تأثير الجماعة ينتج عنه ازدياد فى التقارب بين سلوك الفرد والجماعة، وفى المسايرة يشبع الفرد كثيرا من الدوافع كالدافع إلى التقبل الاجتماعى والمكانة، كما يتجنب رفض الجماعة له.

وقد يعانى الفرد ما يعرف التناثر المعرفى cognitive dissonance عندما يجد اختلافا بين حكمه الشخصى وحكم الجماعة بشأن موضوع ما، إلا أن هذا الاختلاف كثيرا ما يحل بمسايرة الجماعة فى آرائها واتجاهاتها سعيا وراء تقبلها. وقد اتضح أن الضغوط التى تقع على الفرد كى يساير الجماعة عادة ما تكون قوية جدا فى حالة وجوده وسط الجماهير المحتشدة التى يشيع فيها الفوضى، لذلك فهو يتصرف بلا وعى كى يساير هذه الجماهير فى حالات غضبها أو تعرضها للذعر والهلع. وأقرب أمثلة لدينا ما يحدث أحيانا فى بعض مباريات كرة

القدم من عنف غريب عن طبيعة الشخص نظرا لتواجده فى هذه المجموعة المتحمسة، فتحت تأثير الجماعة يقل التفكير المنطقى، وتظهر الاندفاعات العدوانية المكبوتة، والعنف يولد العنف، وقد يتحول الفرد الذى من طبعه الهدوء إلى حالة من الهياج والصراخ والتحطيم دون أن يدرى ويندهش كثيرا لتصرفاته العنيفة الحمقاء عندما يعود إلى صوابه، لهذا ينصح بالابتعاد الفورى عن مثل هذه الجماعات، وبخاصة وأنه قد يندس بين الحشد أفراد مأجورين أو أعداء من معتادى الشغب، ولهذا السبب أيضا تحاول السلطات المختصة فى أى بلد ما تكليف قوات الشرطة بمراقبة التجمعات والحد منها محافظة على الأرواح والممتلكات.

٤- الميكانيزمات النفسية الدفاعية فى التعصب الدينى:

أقام القرآن الكريم الأدلة على وجود الله تعالى وعلى وحدانيته وقدرته بأسلوب يقنع كل ذى عقل سليم، فوجود الله - عز وجل - هو الحقيقة العظمى التى استقرت فى كل قلب سليم، وفى كل عقل قويم ونفس سوية.

ولقد قص علينا القرآن فى آيات كثيرة، أن المشركين كانوا يعترفون بوجود الخالق - عز وجل - دون جدال منهم فى ذلك، وإنما كان جدالهم يدور حول وحدانيته سبحانه، ومن الآيات القرآنية التى صرحت باعترافهم بوجوده - تعالى- قوله سبحانه : "**ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله فأنى يؤفكون**" (الآية ٨٧ من سورة الزخرف) وفى آية أخرى "**ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم**" (الآية ٩ من سورة الزخرف)، وفى آية ثالثة "**ولئن سألتهم من نزل من السماء ماءً فأحيا به الأرض من بعد موتها ليقولن الله**" (الآية ٦٣ من سورة العنكبوت).

إذن فوجود الله تعالى اعترف به المؤمنون واعترف به غير المؤمنين، لأن وجوده - عز وجل - مهيمن على كل فطرة إنسانية سليمة، ومستقر فى كل ذات بشرية قويمة، فالإنسان بمقتضى الشعور المغروس فى نفسه، يحس ويشعر بأن فوق هذه المخلوقات المحدودة المتناهية خالقا غير محدود ولا متناه، مهيمن على كل شئ ويدير كل شئ، وهو شعور يجده الإنسان فى قرارة نفسه دون تعلم ولا تلقين ولا توجيه ولا إرشاد ، وهو شعور يميز الإنسان عن الحيوان.

إلا أن هذا الشعور المغروس فى كيان الإنسان وفى ذاته ووجدانه وعقله قد يخفت أحيانا بسبب البيئة الثقافية أو المرض النفسى.

وفيما يتعلق بالبيئة الثقافية يرى علماء الدين أن الوثنيات والديانات الخرافية والمعتقدات الفاسدة هى علل طارئة، وأمراض متطفلة على التدين البشرى وعلى الفطرة التى فطر الناس عليها وهى عقيدة التوحيد.

ومن متطلبات الإيمان العمل الصالح، بما أمر الله به من فراض والكف عما نهى عنه من محرمات وشبهات كبرت أو صغرت، فالإيمان عقيدة تنعكس عنها تصرفات الإنسان، وينطبع بها سلوكه العملى فى واقع حياته، وهناك آيات قرآنية متعددة تقرن الإيمان بالعمل الصالح. كقوله تعالى: "**وأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم والله لا يحب الظالمين**" الآية ٥٧ من سورة آل عمران وقال تعالى "**إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا**" الآية ٣٠ من سورة الكهف.

أما فى حالة المرض النفسى فهنا يظهر التدين مع العمل غير الصالح كاغتصاب الحقوق والإيذاء والقتل[1] أو التحريض على مثل هذه الأعمال تحت ستار الدين، أو تبريرها بدعوى أنها أعمالا واجبه، وكلها تصرفات تشير إلى إلحاد صاحبها أو إنكاره اللاشعورى لوجود الله، حيث يلجأ مرتكبوها إلى إظهار التدين والتلطف كرد فعل لا شعورى للإلحاد والإجرام، وحيث تكون إدعاءاتهم وأقوالهم فى واد بينما تسير تصرفاتهم الحقيقية فى واد آخر مضاد أو معاكس. وإلى جانب تكوين رد الفعل هناك أيضا ميكانيزم الإسقاط ويبدو فى اتهام الآخرين بالعدوانية والإجرام كوسيلة لإبعاد هذه الصفات عن صاحبها باعتبارها موجودة فى أعدائه وغير موجودة فيه.

ونلاحظ أن المتطرفين الصهيونيين وأتباعهم من أعضاء الحزب اليمنى المتطرف يظهرون التمسك الشديد بالدين وهم فى نفس الوقت كانوا أكثر من غيرهم اتهاما للفلسطينيين بالشر والإجرام حتى قبل إحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١ بالرغم مما

---

[1] ما لم يكن دفاعا عن النفس أو الوطن لطرد قوات الاحتلال وهو جهاد فى سبيل الله، قال تعالى "من قتل نفسا بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعا" صدق الله العظيم (الآية٣٢ من سورة المائدة).

كان يتعرض له الفلسطينيين من حصـــار وتجويـــع وقتـــل علـــى أيـــدى القـــوات الإسرائيلية، ولعل هذا راجع أيضا إلى إيمان هؤلاء المتطرفون بعقائد دينية مشـــوهة ناتجة عن أوهام دينية مرضية تدعوا إلى القتل وطرد السكان العرب من ديـــارهم، أما الأديان السماوية المنزلة فهى تدعو إلى الإيمان بوجود الله وإلى المحبـــة بيـــن الناس والعمل الصالح.

ويقول تايلور وزملاؤه T.aylor et al (١٩٩٨) فى دراســـة لـــهم عـــن الأوهام المرضية والعنف delusion and violence أن الاعتقاد فـــى وجـــود الله ليس فقط اعتقاد فطرى طبيعى فى الإنسان السوى فى كثير من المجتمعات بل هـــو أيضا ضرورى لحياة الإنسان النفسية السوية. ويرى هؤلاء البـــاحثون أن انتشـــار الأوهام المرضية كى تصبح عقائد أساسية تحضر على العنف ويســـلك بمقتضاهـــا الأفراد كان معرفا منذ ماكاى Mackay (١٨٦٩) ، والذى أطلق عليها اسم أوهـــام شائعة popular delusions ، ويقول أنه قد يترتب عنها ما يعرف بـــ "جنـــون الجماهير" madness of the crowds ، وبالرغم من أن أفراد المجتمـــع أســـوياء نفسيا إلا أن هذه الأوهام المرضية التى يؤمن بها – الشعب وقادته كعقائد دينيـــة – قد تدفعه إلى أن يسلك بجنون، وربما كانت مثل هذه العقائد المشوهة عاملا مســـاعدا قد أدى إلى ازدياد تصعيد النزاعات العرقية فى رواندا والبلقان وغيرهما.

ونجد فى القرآن الكريم العديد من الآيات التى تدعـــو إلـــى الســـلام ونبـــذ التعصب والعنصرية والعنف[1].

قال تعالى : "يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثـــى وجعلنـــاكم شـــعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير" صـــدق الله العظيـــم . الآية ١٣ من سورة الحجرات.

---

[1] قال الإمام الغزالى فى كتابه المنقذ من الضلال: أن السلام فى أسماء الله تعالى معنـــاه: الـــذى سلمت ذاته عن العيب، وصفاته عن النقص، وأفعاله عن الشر، وليس فى الوجود ســـلامه إلا وهى منسوبة إليه وصادرة منه.

الفصل التاسع عشر

دراسات عن الأوهام المرضية والعنف

استطاع سوانسن وزملاؤه Swanson et al. (١٩٩٠) التوصل إلى ما يفيد بأن الأفراد الذين يعانون من مرضى الفصام – كما يشخص بواسطة الدليل التشخيصى للأمراض النفسية الطبعة الثالثة للجمعية الأمريكية للطب النفسى DSMII – هم أكثر عرضة بمقدار من ٤–٦ مرات للقيام بأعمال العنف من الأفراد الأسوياء ، كما تشير الدراسات أيضا إلى أن أعمال العنف بين مرضى الذهان الوجدانى affective psychosis أعلى بنسبة الضعف تقريبا عن الأفراد العاديين، وقد تضمن هذا العنف التهجم على الغرباء واستخدام الأسلحة.

وتوصلت أيضا الدراسات التى أجريت على عينات من المجرمين فى مجتمعات بريطانية وأمريكية إلى نتائج مشابهة، كما لوحظ أن نسبة الجرائم عند الفصاميين من الرجال والنساء تزداد عند بداية التعرض للمرض، كما وجدت هودجنز Hodgins (١٩٩٢) فى دراسة لها على عينات اسكندنافيه أن نسبة كبيرة من الأفراد الذين يتعرضون للمرض العقلى ويقبلون للعلاج بمستشفيات الصحة النفسية عادة ما يكونوا قد تورطوا فى ارتكاب جرائم اعتداء من نوع ما قبيل دخولهم هذه المستشفيات.

وقد اتضح أن الذهانيين الذين يعانون من الأوهام المرضية أكثر ارتكابا لجرائم العنف عن الذهانيين الذين لا يعانون من هذه الأوهام، هذا وفى دراستين لبوكر Boker (٧٣، ١٩٨٢) قارن فيها بين مجموعتين من مرضى الذهان يعانى افرادهما من الأوهام المرضية، إحداهما ارتكب أفرادها جرائم قتل والأخرى لم تظهر بين أفرادها أعراض للعنف حيث اتضح له أن الأوهام المرضية التى يعانى منها أفراد المجموعة الأولى – ذوى جرائم القتل – تفوق بكثير الأوهام التى يعانى منها أفراد المجموعة الثانية من حيث قوة الاقتناع بالأوهام وشذوذها وانشغال المريض بها، كما اتضح لبوكر أن ٨٩% من أفراد المجموعة الأولى كانت تعتريهم نوبات الأوهام المرضية خلال قيامهم بعمليات القتل أو محاولاتهم القتل، ووجد بوكر أيضا نتائج مشابهة مع مرضى الذهان الوجدانى.

هذا ومما يؤكد أيضا الارتباط الوثيق بين العنف والأوهام المرضية أن الدراسات أثبتت أن الأشخاص المصابين بأنماط البارانويا المختلفة paranoid subtype سواء كانوا من مرضى الفصام أو من مرضى البارانويا - وهم مرضى يغلب عليهم الأوهام المرضية أو الضلالات - يزداد عندهم العنف وجرائم الاعتداء عن سائر المرضى الذهانيين.

ويرى كثير من الباحثين منهم جيبنز Gibbens (١٩٥٨) وماكنايت وزملاؤه Mcknightet al (١٩٦٦) وبيترسون وجدجونسون Peterssonand Gudjonsson (١٩٨١) أن هناك نسبة تتراوح بين ٢٥% و ٤٠% من الأفراد غير الأسوياء عقليا mentally abnormal الذين ارتكبوا جرائم اعتداء - ليسوا كلهم بالضرورة ذهانيين - وإنما يعانون من الأوهام المرضية النفسية.

وقد قدم ميونرو Munro (١٩٩٩) وصفا لأفراد أسوياء قد يتعرضون أحيانا لأوهام مرضية مؤقتة بسبب اضطرابات الشخصية personality disorder أو تناول جرعات من المواد المخدرة أو لهم أقرباء مصابين بالفصام أو البارانويا أو يكون هؤلاء الأفراد فى مرحلة ما قبل التعرض للمرض النفسى premorbid personality patterns ، وهؤلاء الأفراد قد يكونون أكثر من غيرهم من الأسوياء لجوءاً إلى العنف.

كذلك وجد بيترسون وجد جونسون (١٩٨١) أيضا أن نسبة ٧٠% من مرضى الفصام مرتكبى جرائم العنف قد أقدموا على ارتكابها تحت تأثير أوهامهم العقلية المرضية، كإدراكهم لضحاياهم مثلا أنهم أعداء أو خونة، حيث يعتقد المريض مثلا بأن زميله ينوى قتله فيقتله دفاعا عن نفسه، أو بأن زوجته تخونه ويتشكك فى سلوكها ويقتلها انتقاما لشرفه، ويرتكب المريض جريمته وهو على ثقة تامة من صدق اعتقاده الوهمى الخاطئ. وهكذا تؤثر الأوهام المرضية على سلوك الفرد، فلكى تؤدى إلى العنف ينبغى أن يكون صاحبها مقتنع بها تمام الاقتناع، هذا بالإضافة إلى أن مضمونها يجب أن يكون محرضا وحافزا له نحو العنف، كالأوهام التى تدفع صاحبها مثلا نحو الشك أو التخوف أو الشعور بالاضطهاد الشديد والرغبة فى الانتقام أو الدفاع عن النفس، هذا وقد تراود بعض المرضى أفكارا غريبة ناتجة عن أوهام التأثير المرضية، delusions of influence حيث يعتقد الفرد بأن شخصا ما أو ساحرا يحركه دون أن يدرى نحو القتل والعدوان. ويرى

بعض الباحثين أن هذه الأوهام المرضية الخاصة بالتأثير لا تقل أهمية عن أوهام الغيرة المرضية أو أوهام العظمة أو الاضطهاد فى توجيه الفرد نحو العنف وبخاصة فى بعض المجتمعات النائية تبعا لما يسود فيها من ثقافات غير مألوفة.

نماذج من الحالات:

حالة (أ)

اصطحب (سوفيت) رجال الشرطة إلى قبر صغير بجوار مسكنه .. كان قد قتل زوجته وأكل لحمها ووضع ما تبقى من عظامها فى هذا القبر، كما أجبر أحد أولاده على قتل أخ أصغر له ومزقه إلى قطع ثم أكله، ثم قتل طفله الرضيع ومزقه وعلقه على أحد الأعمدة بمسكنه كى يجفف لحمه مع جثة عمه الذى كان قد ذبحه منذ يومين، وقد شهد جيرانه على هذا، كما اعترف الجانى كذلك بأنه سبق له أن تخلص من حماته التى قرر أن لحمها لم يكن سهل المضغ.

ظهرت هذه الحالة لرجل يعيش ضمن السكان الهنود "الألجونكيانز الشماليين NorthernAlgonkians وهم موجودين فى منطقة فى شمال الولايات المتحدة وجنوب كندا، وهذه الحالة توضح أوهام التأثير المرضية حيث يظهر هناك مرض نفسى يعرفه الأطباء النفسيون هناك باسم ذهانى الويندجو windigo، وكلمة ويندجو هذه تشير إلى غول مخيف يبلغ طوله عشرين أو ثلاثين قدما شكله مخيف يعتقد السكان بوجوده هناك، وله قلب من الثلج، عديم الرحمة، يوجد لديه رغبة عارمة فى أكل لحوم البشر وبخاصة فى فصل الشتاء، ويقول السكان بأنه يمكن أن تتملك روح هذا الغول أى شخص هناك فتدفعه إلى أكل لحوم البشر.

حالة (ب):

شاب عمره ٢٦ عاما فى إحدى المدن فى لاوس مصاب بالفصام البارانويدى، كان يرقص فى معبد بمناسبة حفل زواج أسرى مع مجموعة كبيرة من أهله وأقاربه وكان يعتقد بأنهم يكرهونه، وأثناء الحفل أهانه بعض الحاضرين بسبب خروجه عن الطريقة التقليدية المتبعة فى الرقص، فترك الاحتفال غاضبا وعاد ومعه قنبلة يدوية قذفها وسط الحاضرين وقتل منهم ١٦ وجرح ٢٠ ، ولم يحاول الهرب أثر ذلك الحادث بل وقف فى وسطهم قائلا بأعلى صوته أنه غير نادم بالمرة وأنهم يستحقون أكثر من هذا.